الآخر في شعر الحطيئة
دلالة المكان أنموذجاً

د. علي حسين جلود **د. حمادي خلف سعود**

جامعة ذي قار – كلية التربية

الملخص

إن الحديث عن الأخر هو الحديث عن الذات، إذ لا يمكن فصل بعضهما عن البعض، ومهما كانت رتبته ، فمنذ خلق الله ﷻ ادم عليه السلام خلق الله معه حواء ، والإنسان مهما كان شانه لا يستطيع العيش بمفرده . إذ يشكل الحديث عند الشاعر الجاهلي جزءا من حديثه ونظرته إلى ذاته . ولا يمكن قيام الأخر بأي عمل ما ، ما لم تقم الذات معه والوقوف إلى جنبه ، فهي سر وجوده واستواء كيانه ومن غير الذات لا يستطيع الأخر الوصول إلى غايته ، وهو أمر في غاية الصعوبة .

إن العلاقة بيت الذات و الأخر هو الخيط الناسخ للخيط الإبداعي وإذا جدليتهما كثيرا ما تبدو مصطنعه في الخطاب الفكري، فان الإبداع يتيح لها من مقومات البناء والصياغة ما يوسع إمكانيات تصورها والتعبير عنها ، وبالمناسبة إن المفكرين غالبا ما يضيعون فرص الشراء عندما يلتفون حول قضاياهم دون أن يشعروا بغياب المبدع والحاجة إلى حسه وحدسه [1].

وعليه أن أي نص أدبي لا يطلق عليه نصا أدبيا من غير تدخل الأخر فيه ، لان العناصر الموجودة فيه كالخيال والعاطفة والأسلوب كلها تعتبر أخر . فذات الشاعر التي توحد الأخر وتستدعيه ، لحاجتها إليه إذا لم يكن موجودا أصلا أو حقيقة ، كما إن وجود الآخر يستدعي وجود الذات .

المدخل

المكان: هو المنشئ الحقيقي الذي يتربي في أحضانه الإنسان ويعيش في وسطه إذ تربطه ذكريات حزينة أو مفرحة وعلى الرغم من ذلك لا يمكن مغادرته بسهوله الا لظروف قاسيه ، بحيث تؤثر عليه سلبا. وقد تصادف الإنسان كثيرا من الامكنه التي تبعث

الرعب وعدم الاطمئنان مما تجعله تعيش حالة القلق الاضطراب ، من ثم تكون علاقته عدائيه اذ (تثير في النفس مشاعر الخوف والقلق لما ينطوي عليه من عداء وكراهية حيث ينتفي الشعور بالأمن وينعدم الإحساس بالألفة) [2] العكس من ذلك نجد (أمكنه أمنه تساعدنا على الاستقرار والراحة والشعور بالطمئنانيه) فضلا عن ذلك نجد ان بعض الأشخاص لا يستقرون في مكان في مكان ما حتى وان كان يبعث لهم الشعور بالراحة ، ومرد ذلك لعدم استقرار الحالة النفسية للفرد.

وفي دراستنا هذه لا نريد أن نبحث في الأمكنة الحقيقية التي يعيشها الإنسان فعلا ، بقدر ما نبحث التي يتخذها الأديب أو الشاعر في فنه .

فالمكان في الأدب غير المكان الواقعي الذي يسكنه الإنسان بحاله من (أهميه كبيرة في النتاج الفني ، لان الفن يستحيل أن يسمى من دون المكان) [3] ويمكن القول إن المكان الأرضية التي يتخذها الأديب لفنه (من خلال جعله ساحة للأحداث تتقدم من خلاله الصور والشخصيات ، فيصور الواقع والخيال الفكري) [4].

وتكمن أهمية المكان بما يقدمه من وظائف للأديب ، بحيث يتخذها الأديب منطلقا لاغناء تجربته الشعرية [5] فهو يضفي على الأدب جماليه ، بما يقدمه من متعة تجذب انتباه المتلقي ، وتفاعله مع النص . ولأهميته توجهت الدراسات الأدبية أنظارها نحوه .

فالأديب عندما يستحضر مفردات المكان في نصه لم يكن استحضارها عبثا ، بل يعبر عن دلالات (نفسيه أو اجتماعيه أو قوميه أو دينيه أو تاريخية)[6] حفظتها ذاكرته لسبب كان أن يكون محزنا أو مفرحا .

تختلف نظرة الشعراء للمكان حسب الحالة النفسية والثقافية التي يمتلكها ، كما تختلف نظرة الشعراء قديما عن نظرة الشعراء حديثا فهو (لم يكن حدثا طارئا في شعر الشاعر العربي أو فكرة عابرة وإنما رؤية خاصة تشكلت عند وظيفة عبر بها عن دلاله معينه أرادها أن تصل إلى متلقيه) [7] .

وعليه إن نضرة الشاعر العادي للمكان تختلف عن نضرة العاشق ، فتذكر المكان بالنسبة للعاشق تثير له تداعيات الحنين إلى الماضي ومغامرات الحب ، فيكون المكان وهذه الحالة كل حياتهم ، فمنه ينهلون معين حبهم ويغرقون بذكريات الأحلام (فيمتزج المكان بالحبيبة والحبيبة بالمكان إذ يستدعي كل منهما الأخر) [8] .

ومهما يكن من شيء لاستطيع الشاعر أن يجعل حضور المكان في النص إلا من خلال عناصر اللغة ، لكي يتسنى له الإحاطة بكل مقوماته حتى يصل إلى هدفه أنيطه من اجله [9] .

إذ لاستصلح اللغة لكل الامكنه ، بل تتغير اللغة من مكان إلى آخر (فلكل مكـــان شفرة لغوية تميزه عن الآخر حتى لو كان يحمل الاسم نفسه) [10] .

فالمفردات التي يستعملها ابن الريف تختلف عن المفردات التـــي يســـتعملها ابـــن المدينة، وان تشابهت تلك المفردات لان الاختلاف يحدث من خلال تطويع اللفظة وبنائها ، ولا يحضى المكان بالمتعة والجمالية إلا بواسطة الارتباط بقيم معينـــه ، ونقصـــد بـــالقيم المكانية ، المكان الواقعي والمكان الفني ، والمكان الحلم . فباجتماعها تعطي النص ثراء ومتعه [11] وهذا الثراء والمتعة لا يحس به الإنسان البسيط وإنما يقتصر علـــى المتلقـــي الحقيقي الذي له معرفة تامة وثقافة عاليه في استقبال النص ، من خلال فهـــم المفـــردات الذي يحملها النص . كما ان المتلقي يختلف من قارئ إلى قارئ أخر، حسب الثقافة التي يحملها.

وكما ذكرنا أنفا إن القيمة المكانية تاتي من القيمة الجمالية ، حـــين يـــرتبط بقـــيم الواقعي والحلم والفن ، وكل ذلك تساعد على اضهار حيويته ومقبوليته لدى المتلقـــي [12] ويتولد القبول والرضي لدى المتلقي مايضيفه الأديب من خيال وعاطفة واسلوب في رسم ملامح المكان ، ومرد ذلك قدرته البارعة على التصوير في إيجاد أرضية مناسبة لتطويع المفردات اللغوية التي تناسب موضوعه الذي جاء لأجله [13].

وفي بحثنا هذا لا نريد ان تخوض عن المكان في شعر الحطيئة ، ومكن الذي نريد ان نبينه هنا ، هو دلالة المكان الذي يتعلق بالمرأة المعشوقة وعلاقتها بالـــذات الشـــاعرة وسوف تتركز دراستنا هنا حول الطلل، والرحلة ، لأنها مفهومان أكثر التصاقا بالتجربـــة العشيقة بين الرجل والمرأة.

أولاً: الطلل :

عرف الطلل منذ بداية عصر ما قبل الاسلام ، وكاد ان يكون ظاهرة بارزة علـــى يد شعراء المعلقات العشر وخصوصا امرؤ القي سالي كان السباق الأول في وقوفه علـــى أطلال الحبيبة، وقد نهج الشعراء منهجه ، وأصبح الوقوف على الاطلال وسيله يصل بها

الشاعر الى غرضه الذي نظم من اجله القصيدة. إذ ان وقوف الشاعر غلى الاطلال لم يكن استذكارا لمواقف انسانيه عاشها الشاعر مع الأهل والأصحاب ، ولكن وقوف الشاعر على الأطلال البالية والدمن الدراسية يأتي لجوانب عاطفيه عاشها مع الحبيبة ، وعند رحيلها أخذت تشده هذه الذكريات الى الماضي الذي ولد في نفسه اللوعة والحنين إليها ، فهو يبكي على تجربه حسب مريرة ، قد أثارت انفعالاته بعد رحيلها . وقد لا يكون كذلك بل يكون وقوفه على الطلل رمزا للفناء الذي ينتظر الإنسان [14] .

فالشاعر عندما يحاور الطلل او يعرض صورة التحول والفناء [15]. إذ يمكن القول إن الطلل تجسيد حي للأعمال الانسانيه التي يمارسها عبر مسيرة حياته.

إن سبب لجوء الشاعر إلى الاطلال عند مغادرة الحبيبة المكان ، لم يكن مجرد تذكر الأيام السعيدة فحسب بل استحضارا لشخصها ، لعدم قدرته عل تحمل غيابها إذ يكون الوقوف حافزا قويا في استحضار صورتها أمام عينيه وكأنها حقيقة في ذهنه .

إذ يدخل عامل الزمن ، ويأخذ حيزا كبيرا ليشارك المكان ، وهو مهم بالنسبة للشاعر ، ويمثل الزمان الماضي والحاضر ، فالماضي احسب إلى نفس الشاعر لان فيه اللحظات السعيدة التي تبعث الأمل والسعادة بينما يكون الحاضر العامل الرئيسي لذهاب متعة الحياة السعيدة ، مما يولد الأسى والحزن في قلب الشاعر،

الحطيئة يقول :

يا دَارَ هِنْدٍ عَفَتْ إلاَّ أَثَافِيها ... بين الطَّويِّ فصاراتٍ فواديه

أرَّى عليها وليٌّ ما يغيِّرها ... وديمةٌ حلِّيتْ فيها عزاليه

قد غيَّر الدّهرُ من بعدي معارفها ... والرِّيحُ فادَّفَنَتْ منها مَغَانيها

جرَّتْ عليها بأذيالٍ لها عصفٍ ... فَأصْبَحَتْ مِثْل سَحْقِ البُردِ عَافيها

كأَنَّني سَاورَتْنِي يَوْمَ أَسْأَلُها ... عَوْدٌ مِنَ الرُّقْشِ ما تُصْغِي لراقيها

تكشف الأبيات عن مدى معانات (الذات) الشاعرة تجاه الأخر ، المكان الذي تجسده المرأة الحبيبة ، وهذا ما نلمسه بواسطة الحوار اللامادي الذي شكلت عليه الأبيات، من خلال أسلوب النداء ، إذ جاء في بداية الكلام ، لان النداء في (بداية الكلام يوحي بالانفعال والألم)[17] ويمكن الاستدلال على معاناة والذات وضعفها وحضورها القليل ، وذلك ما يرشدنا إليه الفعل المضارع (أرى) وحضورها القليل يأتي ساردا لإحداث الأخر/

المكان الذي تجسده المرأة الحبيبة . في حين نجد إن الأخر ، هو الفاعل والحاضر ، والمهيمن على بنية النص فهو منطلق الدلالة ، ومحور القول ، وهو المسيطر على الفاعلية النصية ، وهذا انكشف عنه البني الصاغية المتمثلة بالجمل الاسمية والأفعال والصور ذات التجلي العائد إلى الأخر / المكان . فالأفعال جاءت على نحو (عفت، غير، جرت ، أصبحت) والجمل الاسمية (وديمة ، حليت فيها غزاليها ، والريح فادفنت منها مغانيها) . ثم يأتي التصوير الشعري المتمثل بالتشبيه في قوله :

يا دَارَ هِنْدٍ عَفَتْ إلاَّ أَثَافِيها بين الطَّوِيِّ فصاراتٍ فواديها

فالشاعر شبه الديار بالبئر الدارس الذي مر عليه مدة من الزمن ، بحيث أصبح الرائي إذا ما نظر إليه لا يفرق بينه وبين الأرض المنبسطة . وبين البيت الأتي الذات وانكسارها . على نحو قوله :

كأَنَّني سَاورَتْنِي يَوْمَ أَسْأَلُها عَوْدٌ مِنَ الرُّقْشِ ما تُصْغِي لراقيها

وتحديدا بالفعلين (ساورتني ، اسألها)

إذن فاعلية الذات الشاعرة من هذا التشبيه الممزوج بالحوارية . وفي اعتقادنا أنها أرادت أن تكشف أو أرادت ان تستعطف الآخرين، للالتفات أو الانتباه إلى حديثها ، للتخفيف عنها الصدقة النفسية. وإذا ما جاز لنا القول إن علاقة الذات مع الأخر المكان الذي تجسده المرأة ، علاقة ضعيفة قائمة على طرف واحد يمثلها الذات بدليل عدم استجابة الأخر / المكان إيجابا أو رفضا.

وتتضاعف عذابات الذات كلما بعدت الحبيبة عن المكان ونلمس ذلك في قوله:

عرفتُ منازلاً من آل هندٍ عفت بعد المؤبَّل والشّويِّ
تقادم عَهْدُها وجَرَى عليه سَفِيٌّ للرِّياح عَلَى سَفِيِّ
تراها بعد دعسِ الحيِّ فيها كحاشية الرّداء الحميريِّ (18)

ان حب الذات للمرأة الحبيبة جعلها تتخذ من المكان معادلا موضوعيا ، فنراها ، عندما تذكر المكان أنها لا تقصد المكان لذاته ،بل تتحدث عن علاقتها مع المرأة الحبيبة ، التي أنهت تلك العلاقة القائمة بينهما بمغادرتها للأخر/ المكان . لذا شبه العلاقة بين الذات الشاعرة والحبيبة بالديار التي تركها أهلها ، وظلت معقلا للرياح فتقلب عاليها سافلها . لذ نلاحظ إن الذات الشاعرة عندما توصف الطلل ، تجرده من كل مستلزمات الحياة.

وحسبنا الفعل (عفت) الذي يوحي بالانهيار التام لتلك الاطلال، وخلوها من جميع الكائنات ، بعد إن كانت عامرة بدليل قوله (عفت بعد المؤبَّل والشّويِّ) كما نلمس تجربة الذات للأخر/ المكان من خلال قوله :

تراها بعد دعسِ الحيِّ فيها كحاشية الرّداء الحميريِّ

إن إحساس الذات الشاعرة ، بالحرمان الأبدي من الحبيبة جعلها ان تقف عل الاطلال الدارسة والبقاء عليها [19].

ولعل ما يكشف محنة الذات و تأزمها قوله :

عرفتُ منازلاً من آل هندٍ عفت بعد المؤبَّل والشّويِّ

ويلاحظ بالتأمل الفاحص للأبيات السابقة غياب الذات الشاعرة من جسد الأبيات باستثناء البيت الأول ، إذ حضرت الفعل (عرفت) الدال على الزمن الأول ، وبهذا الحضور قد خاطبت الأخر / المكان / وغيابها إشعار المتلقي لاستقبال خلاصة حديثها عند الأخر / المكان المجسد بالمرأة الحبيبة.

إما في البيت الثاني اكتفت الذات بدور السارد على إنها استمالت إلى ذات متكملة ، أخذت تلهج بنغمة الحزن بدليل قوله:

تراها بعد دعسِ الحيِّ فيها كحاشية الرّداء الحميريِّ

إذ شبه الشاعر مكان الحبيبة بالرواء الممزق ، لكثرة الاستعمال ، فهو يريد أن يقول إن دار الحبيبة صارت مسلكا للإنسان والحيوان ، اذ أفرغها من الحياة تماما.

ولأجل ذلك أراد أن يرسم صورة سوداوية للمكان بوصفة مكان لا يصلح العيش فيه ، وقد استعمل حاسة البصر ليحقق بها اكبر قدر ممكن من جماليات المكان الموصوف .

وتستمر معانات الذات وانكسارها بقوله :

هَل تَعرِفُ الدارَ مُذ عامَينِ أَو عاما داراً لِهِندٍ بِجَزعِ الخَرجِ فَالدامِ
تَحنو لِأَطلائِها عينٌ مُلَمَّعَةٌ سُفعُ الخُدودِ بَعيداتٌ مِنَ الذامِ
وَقَد أُغادي بِها صَفراءَ آنِسَةٍ لا تَأتَلي دونَ مَعروفٍ بِأَقسامِ
خَوداً لَعوباً لَها رَيّا وَرائِحَةٌ تَشفي فُؤادَ رَذِيٍّ الجِسمِ مِسقامِ[20]

تحاور الذات موضوعها الاخر / المكان حوارا خارجيا متخذة من اناتها رفيقا لها ، اذ ينتابها الحزن من وجهة ومن جهة اخرى كان الحوار مباشرا بحسب مايشيء به

شطر البيت الاول على نحو (هَل تَعرِفُ الدارَ مُذ عامَينِ) وعلى الرغم من اندثار الدار وعدم ظهور معالمها الا ان الذات الشاعرة تبعث بها الحياة والديمومة بدليل قوله :

تَحنو لِأَطلائِها عينٌ مُلَمَّعَةٌ سُفعُ الخُدودِ بَعيداتٌ مِنَ الذامِ

وبواسطة الأسلوب الخبري تؤكد الذات سبب تعلقها بالاطلال وياتي من خلال تعلقها بالحبيبة، بما تمثله من صفات مادية ومعنوية ونلمس :

وَقَد أُغادي بِها صَفراءَ آنِسَةٍ لا تَأتَلي دونَ مَعروفٍ بِأَقسامِ

خَوداً لَعوباً لَها رَيّا وَرائِحَةٌ تَشفي فُؤادَ رَذِيٍّ الجِسمِ مِسقامِ

ولو عدنا إلى البيت الأول ، لوجدنا ان الذات تخاطب الدار (الاطلال) بالأسلوب الإنشائي المتمثل بالاستفهام .

على نحو قوله :

هَل تَعرِفُ الدارَ مُذ عامَينِ أَو عاما داراً لِهِندٍ بِجَزعِ الخَرجِ فَالدامِ

وان حضور الأسلوب الإنشائي في النص لم يأتي به الشاعر اعتباطا ، بل أراد أن يرفع عن ذاكرته علمه بمكان الحبيبة السابق [21].

تكشف البني الصياغية ، ضعف الذات وانكسارها فتمثله بالأسلوب الإنشائي الذي يوضحه الاستفهام (هل) الماثل في البيت الأول.

وعلى الرغم من ضعف الذات وانكسارها إمام الطلل ، يبدو فسحة من الأمل يتجلى في البيت الثاني على نحو قوله :

تَحنو لِأَطلائِها عينٌ مُلَمَّعَةٌ سُفعُ الخُدودِ بَعيداتٌ مِنَ الذامِ

إذ يتجلى عن كتابة فاعله ، كشفت عن عطف الأخر / المكان وخاصة في ألوائه للحيوانات الوحشية، وهو تعبير جميل يظهر حنان الحبيبة وتعلقها بالحبيب ، وهيه تنظر إليه بعين العطف والحنان.

إن الذي عزز دلالة الأخر / المكان الصورة المكانية المتحيدة بمفرد (عين مولعة) بما تطلقه من معان الحب والحنان، كما إن مفردة (صفراء انسة) التي جاءت بصيغة الفرد تدل على شدة التعلق بين الذات الشاعرة والاخر / الحبيبة.

وبعد تحقق الحلم مع الأخر / الحبيبة تعطي الذات وصفا للمرأة الحبيبة

(خَوداً لَعوباً لَها رَيّا وَرائِحَةٌ تَشفي فُؤادَ رَذِيٍّ الجِسمِ مِسقامِ)

فضلا عن دور الفاعل للفعل (يشفي) في تعزيز الثقة بين الذات والاخر / المكان.

ان لجوء الشاعر الجاهلي الى الاطلال والوقوف عليها بعد فقد الحبيبة ، رغبه منه / ليشاركه همومه واحزانة [22] ويندرس الطلل تماما ويستحيل معرفته عن الذات مما يزيدها انكسارا من ذلك قوله :

تعذّر بعد رامةَ من سليمى أَجَارِعُ بَعْدَ رَامَةَ فالهُجُولُ
أَرَبَّ المُدْجِنَاتِ به وجَرَّتْ به الأذيال معصفةٌ جفول
و هاج إلى الصّبابة من هواها بحنوِ قراقرٍ طللٌ محيلُ
كما هاج الصّبابة يوم مرّت عَوامِدَ نَحْوَ وَاقِصَةَ الحُمُولُ

يزداد انكسار الذات المتكلمة وضعفها أمام الأخر / المرأة وعلى الرغم من هذا الانكسار إلا إنها لم تكن في موضع الذل ، لأنها لا ترى جدوى من الحزن ، إذ ياست تماما وقد دام على فراقها زمنا طويلا ، بحيث أصبح لا يعرف شيئا من معالم الدار ، ومما يعزز ذلك صيغة (الفعل الماضي) (تعتذر) المرتبط بالسرد الاختباري الدال على الحديث الذي يوحي بالانهيار التام للطلل ، وعدم التمييز بينه وبين الأرض الحقيقية، ويتبع السرد بمفرد (بعد) الدالة على الزمان المضافة إلى (رامة) الدالة على حسن الألفة مع الأخر / الحبيبة التي يجسدها دلالة المكان . وقد عبر عن تلك الإقامة الحسنة مع الأخر / بواسطة الفعل (ارب) الدال على الخير والنماء ، المتبوعة بالفاعل (المدجنات) وهنا تبرز ثنائية الموت والحياة ، فالشاعر في بداية النص اضفى على الطلل الموت في قوله :

(تعذر بعد رامة من سليمى اجارع بعد رامة فالهجول)

ولكن في البيت الثاني جعل الحياة تعود اليه على نحو قوله :

أَرَبَّ المُدْجِنَاتِ به وجَرَّتْ به الأذيال معصفةٌ جفول

وأية ذلك ان الذات لا تريد أن تقطع العلة الحميمية بينها و بين الأخر / الحبيبة ، و بهذا إن الذات اتجهت نحو الزمان لإشراكه مع المكان ، لأنه يحمل دلالات جمالية لا يمكن الاستغناء عنها ، بحيث يشكل الزمان والمكان بنية واحدة ، لإثراء النص ومن خلالها يصبح العمل الفني متكاملا [24].

إن حضور الزمان في النص لم ياتي اعتباطا ، بل كان له الأثر في تحديد العلاقة العشيقة في نفس الذات الشاعرة ، لإيصال رسالته للحبيبة على نحو قوله :

و هاج إلى الصّبابة من هواها بحنوِ قراقرٍ طللٌ محيلُ

كما كان لاستدعاء الزمان في مفردة (المدجنات) لبعث الحياة من جديد ، وهذا ما يزيد من قوتها وتضخيمها ، لان الماء أصل الأشياء ووجودها عنصر من عناصر الحياة والشاعر حين (يبعث الحياة في اطلاله كان حريصا اشد الحرص على ان يوفر [عنصر الماء] بكثرة باعثة على الدهشة والتامل) [25].

ان الذات في ذكرها للامكنه المختلفة التي استوطنتها الحبيبة محيدة بالمكان (هي رموز للبعد المكاني)[26] الي يشير إلى الحنين ، فكانت على نحو (الهجول ، قراقر) .

وعليه أن ذكر المكان يهيج الحالة لدى الذات ويجعلها ضعيفة.

ويمكن القول إن الأخر / المكان مجسدا بالمرأة الحبيبة كان بؤرة الانطلاق ومحل الدلالة ، انه الحاضر والفاعل وهو الواحد للفاعلية كما انه المحتل لمساحة القول الشعري. والواقع انه كان حضورا ايجابيا بينما يظهر حضور الذات حضورا سلبيا بدليل قوله (اجازع ، هاج) وهو حضور يبدو علية الضعف.

ونلمس من خلال صيغة (هاج) الدال على العنف والثوران ، نتيجة للبعد المكاني بينه وبين الحبيبة ، وهذه صيغة تدل على الشعور باليأس و الإحباط المرتبط بمفردة (الصبابة) المرتبطة بحرف الجر (إلى) ألداله على تعلق الذات بمكان الحبيبة هذا التعلق دلت عليه حرف الجر (إلى) إذ جاءت لتأكيد التعلق بالمرأة.

وفي مفردة (هواها) دلالة على الإخلاص الحقيقي في الحب الذي اضهرته الذات نحو المرأة .وقد عبرت الذات عن البعد المكاني وصعوبة اللقاء بالحبيبة بمفردة (يحنو) المجرورة بالياء لتأكيد على مواصلة اللقاء مع الأخر / الحبيبة .

وتؤكد الذات ضعفها وانكسارها مرة أخرى على قوله :

كما هاج الصّبابة يوم مرّت عَوامِدَ نَحْوَ وَاقِصَةَ الحُمُولُ

وبهذا الاسلوب الانشائي المتمثل في مفردة (كما) نلمس تعالي الاخر / الحبيبة وكبريائها امام الذات.

ونستطيع القول حضور الذات بدى ضعيفا وانتهى ضعيفا يمثل أدنى درجات الضعف والانهزام . وأخيرا تتوجه الذات الشاعرة بالدعاء إلى الاطلال وهي عادة الشعراء الجاهليين على نحو قوله :

سقى دار هند مسبل الودق مده ركام سرى من آخر الليل مردف [27]

ان دعاء الشاعر للاطلال بالمطر ، لانه فيه مادة الحياة التي يخلق منها كل شيء، كما انه قادر على قهر الجدب وبعث الخصب والرزق.

ثانياً: الرحلة :

اتسم شعرنا العربي القديم برحلة الضعائن ، واشتهر امروء القيس بوصفة الرحلة، و أول من تحدث عنها في شعرة ، ثم سار على خطاه الشعراء من بعده.

والرحلة هي وصف الشاعر للمرأة في الهودج ، ولا تطلق مفردة الرحلة إلا على المرأة الحبيبة . وهي مغادرة المرأة للمكان ، كرها من دون علمها فن قبل القبيلة ، والانتقال المفاجئ لها . ورحلة الحبيبة قد تشكل صدمة نفسية للذات.

إن ذكر الرحلة في العمل الأدبي ، مهم بالنسبة للشاعر إذ يقتصر على سبيل المعالجة الآنية (لحدث عاطفي من خلاله .... في مضمر مطامح النفس الى غايتها البعيدة)[28] والشاعر حين يتحدث عن الرحلة لا يريد أن يصف المرأة وصفا حقيقيا من الناحية المعنوية او المادية بقدر مايتذكر الماضي السعيد . ولا يستطيع الشاعر أن يذكر الرحلة بمعزل عن الاطلال والعكس صحيح ، لأنهما جزء من تصورات الذات التي يمكن من خلالها التخفيف عن معاناتها النفسية ، وتكون الناقة المتكأ التي ينطلق منها الشاعر في التعبير عن تلك المعاناة ومن ذلك نقرا قول الحطيئة :

شاقتك أضغان لليلى يوم ناظرة بواكر
في الآل ترفعها الحدا ة كأنها سحق مواقر
كظباء وجرة ساقهن إلى ظلال السدر ناجر
وقدت به الشعرى فالفت الخدود بها الهواجر
يا ليلة قد بتها بجدود نوم العين ساهر
وردت علي همومها ولكل واردة مصادر [29]

تخاطب الذات أناتها بواسطة أسلوب الاستفهام المتمثل (بالهمزة) والذي نلاحظه اتصال الفعل (بتاء) التأنيث ، والمخاطب هو المتكلم نفسه ، كما ان كاف الخطاب في (اشتاقتك) تعود على المتكلم ، وهذا يكشف عن ثنائيه تتصل بالذات الشاعرة مع الذات الحقيقية ، التي تجردت عن الذات الشاعرة وكأنها تحدث مقارنة . إذ يحمل الاستفهام في طياته نوع من الاستغراب على مافعلته الحبيبة ، التي تركته يكابد نار الحب . وهنا يرتبط الزمان بالمكان عن طريق مفردة (يوم) وفي هذه الحالة يكون (الزمن بعدا من أبعاد المكان ولا معنى له إلا بانخراطه في الظاهرة المكانية) [30].

إن الضعائن بحد ذاتها مكان متحرك يحكمها الزمان وعن طريق هذه الحركه يتوحد الزمان مع المكان ويشكلان بنية واحدة [31] ان المعنى التي تحمله الأبيات يظهر حزن الذات وانكسارها على الظعينة (المرأة) عن طريق الأخر / المكان ، لذا كانت الظعينة بؤرة الفعل الشعري ومدار دلالته . لذا شكل المكان الحضور والفاعلية في النص . وقد عبر الشاعر عن وجود الحبيبة (بالضعينة) بواسطة دلالة المكان (ناضرة) ثم يعود الشاعر ليصف لنا الحالة الماساوية التي رافقت الذات عبر الصورة البلاغية المتمثل بالتشبيه الماثل في البيت التالي :

في الآل ترفعها الحدا ة كأنها سحق مواقر

وهذا بطبيعة الحال يكشف عن ضعف الذات وسلبيتها من الحرمان العاطفي الذي كان سببه الحبيبة . ولعدم قدرة الذات على فراقها أي الحبيبة ، لم تستطع التميز بين الألوان التي تستر بها المرأة الظاعنة ، وهي على الهودج ، هذا من جهة ومن جهة أخرى شبة الشاعر الحبيبة الظاعنة بالنخلة ليتخذ منها (قناعا رامز للعنصر الأنثوي الذي يفتقده في مكانه)[32] ويزداد ضعف الذات وانكسارها ويمثل ذلك في قوله :

كظباء وجرة ساقهن إلى ظلال السدر ناجر

فجمال المرأة (الحبيبة) جعل الذات لاتقدر على فراقها ، وهو جمال يشبه ظباء (وجرة) التي لا يمل من رؤيتها الرائي إليها ، ومهما كلف الأمر ، فان الذات شبهت حبها للمرأة بالحب الأزلي.

ويدخل الزمن مرة أخرى على النص ، فيحوله إلى عامل هدم بواسطة الفعل (ساقهن) الدال على الرحيل الإجباري (ظلال السدر) .

وعلى الرغم من ضعف الذات وانكسارها في بادئ الأمر ، إلا إننا نفاجئ بتضخمها والالتحام مع الأخر ، وهذا ما يشيء بة البيت الرابع من ذلك قوله :

وقدت به الشعرى ف الفت الخدود بها الهواجر

وبعد ذلك تقوم الذات بوصفها السعادة التي غمرتها بعد اللقيا مع الحبيبة ويمثل ذلك في قوله:

يا ليلة قد بتها بجدود نوم العين ساهر

ويمكن القول إن الحطيئة يشبه الشعراء الفرسان من جهة افتتاح قصائده بالظعن وهذا راجع الى شدة الصبابة في حبه للنساء (3) . وتصف الذات الشاعرة المرأة (الظعينه) بأنها امرأة جميلة كلامها يشفي المريض ، وثغرها عذب الريق ، وهذا بدوره ما دفع بالذات الشاعرة ان تزداد عذبا وانكسارا ويمثل ذلك في قوله:

الا ال ليلى ارفعوا بقفول وما اذنو ذا حاجة برحيل

تنادو فحلو للترحل غيرهم فبانو ببيضاء الخدود فتول

مبتلة يشفي السقيم كلامها لها جيد ادماء العشي خذول

وتبسم عن عذب مجاج كانه نظافة مزن صفقت بشمول

تكشف الأبيات عن حوار الذات مع أناتها حوارا داخليا تكلله الحزن العميق ، إذ لا نرى لهذا الحوار حدا من قبل الحبيبة ، فهو ينم عن تجربة مأساوية عميقة ، تركتها المرأة الحبيبة في قلب الذات ، فكان الرحيل المفاجئ للحبيبة أثره في إحداث كآبة لدى الذات ، لأنها لم تضع في حسبانها هذا الرحيل السريع ، وحسبنا البني الصياغية لدوال فعل الرحيل على جسد النص على نحو (ارفعوا ، ماذنوا ، تنادوا ، فحلوا ، فبانوا) .

ويستمر الم الذات الشاعرة وحسرتها البالغة من خلال (الا) الاستفتاحية التي دلت على التحسر والذي يمنح صورة لونية توحي بالسواد المرتبط بمفردة (قفول) ومن ثم الذي يكشف عن ما هو مخفي إذ بدا النخيل شاخصا للعيان فضلا عن ذلك كان الشاعر بدا نصه بأسلوب الحاضر (أرى) وهيه رؤية قبلية وبصرية . وتأتي مفردة (العبر) بصيغة الجمع المرتبطة بالحاضر (تحدى) للدلالة على الأخر/ المكان ، والذي دلت عليه مفردة (بين قن وضارج) المكانية فالظرف (بين) جاء لتأكيد المكان الجديد تحديدا موقعيا .

ويمكن القول ان الشاعر جاء بمفردة (كما) لإزالة الشك والإبهام عن نفس السامع أو المتلقي .

وتمضي الذات في سرد الأحداث المرتبطة بالحبيبة بواسطة الصور التأملية المرتبطة بمفردة (نظرت) هذه النضرة المنبثقة من الذات ، وهي نظرت تأثير وتأثرهما زادها ، هما وانكسارا على وجه السرعة (على فوت) وبذلك يبدو التأثير النفسي واضحا في تكوين الصورة المرتبطة بعلاقة الذات مع الحبيبة ، عبر مفردة الزمان (ضحى) لان الزمان في نضرة الشاعر (المرفأ الوحيد الذي يخاطب به حبيبته) [35] كما تأتي مفردة (وعبرتي) ألداله على المكان ، لان الدمعة صورة مكانية محلها العين [36].

وبذلك يكون اجتماع الزمان مع المكان في العمل الأدبي له معطيان ايجابية في إثراء النص من الناحية الجمالية والأسلوبية ، فيدونها بفقد النص دلالته الداخلية والحسية[37]

وعلى العموم فان البنية النصية ، تظهر ضعف الذات الشاعرة أمام المرأة الحبيبة وحسبنا برهانا الصياغة المتمثلة بالأفعال (فتبسم ، تفرقت ، قصرت) وعى أية حال إن المكان مجسدا بالمرأة الحبيبة محل الدلالة.

تتوجه الذات إلى وصف المرأة الحبيبة ، بأنها جميله ذات خلق حسن ويمثل في قولة:

مبتلة يشفي السقيم كلامها لها جيد ادماء العشي خذول

وكما ذكرنا سابقا إن وصف الذات للمرأة لشدة التعلق بها . وياتي وصف جمال المراة من خلال المكان ، بما تمتلك من صفات حسية على نحو قول الباث (لها جيد دماء العشي خذول).

ويمكن وصف حضور الأخر / الحبيبة على المستوى الصاغي حضورا أكثر فاعلية لدى الذات ، بينما يقل حضور الذات في النص و أول ما يطالعنا حضور الذات ، هو ذكر اسمها بصراحة ، فضلا عن حضورها من خلال الصورة البلاغية ، المتمثلة بالتشبيه في قوله (مبتلة يشفي السقيم) إما الذات فلا حضور لها في النص سواء حضرت من خلال سرد الإحداث ، وهو دليل على ضعفها وانهزامها أمام الأخر .

بعد يأس الذات من لقاء الحبيبة ورؤيتها تستسلم إلى الأمر الواقع ويمثل ذلك في قوله :

أرى العير تحدى بين قنٍّ وضارجٍ كما زالَ في الصُّبْحِ الأَشاء الحَوَاملُ
نظرت على فوي ضحيتي وعبرتي لها من وكيف الراس شن وواشل
فتَّبعتهمْ عينيَّ حتى تفرّقـــــــت مع الليل عن سَاقِ الفَرِيدِ الجمايلُ
فلأياً قصرت الطَّرف عنهمْ بجسرةٍ ذَمُولٍ إذا واكَلْتَها لا تُوَاكِـــــلُ

لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الدفقه الشعرية نافورة تتفجر بالحيرة والقلق . بعد ان تأكدت تماما من توجه الاظعان نحو الاخر / المكان (قن ، وضارج) ويثبت التوكيد بعد ارتاظة بالزمن (الصبح).

بؤرة الانطلاق، انه الحاضر والواحد للفاعلية ، وهو المحتل لمساحة القول الشعري. ولكن نرى في نهاية الامر اعلان الذات لقوتها ، مما جعل حظورها حضورا ايجابيا ، ويسوقنا الى ذلك ذكرها للناقة ، التي تمثل القور والصلابه والصبر ، وهي تقطع المسافات الشاسعه في الصحراء متحملة العطش والجوع [38] ويجسد ذلك في قوله :

فلأياً قصرت الطَّرف عنهمْ بجسرةٍ ذَمُولٍ إذا واكَلْتَها لا تُوَاكِلُ

وللبعد المكاني الاثر البالغ في نفوس المحبين ، اذ يخلق انقطاعا تاما بينهما ، مما يستدعي الذات التوجه الى الخيال لرؤية الحبيبة ومناجاتها .

والخيال لا يلجا الية الشاعر الا في حالات صعبة ، كالبعد المكاني بين الحبيب وحبيبته والفراغ القاتل الذي يحس المرء فيه بالوحدة [39] ومن ذلك نقرا :

نَأَتْكَ أُمَامَةُ إلاَّ سُـؤَالاَ وأَبْصَرْتَ مِنْهَا بغَيْبٍ خَيالا
خيالاً يروعك عند المنامِ ويَأْبَى مَعَ الصُّبْحِ إلا زَوَالا
كِنَانِيَّةٌ دَارُها غَرْبَـــةٌ تُجِدُّ وِصَالاً وتُبْلي وِصَالا

تبث هذه الأبيات حوارا داخليا بين الذات الشاعرة واناتها نشم فيه رائحة الالم . نابع عن تجربة عشقية مؤلمة مفعمة بالحزن . بعد اقدام الحبيبة على فعل الرحيل الذي لايبدو انها تعرف المصير الذي ينتظرها بعده، ويسوقنا ذلك من عدم سؤالها عن الحبيب ، وهذا ماتجليه الصياغة المتمثلة بالافعال ذات البعد المكاني على نحو (ناتك ، يابى ، تبلي) فضلا عن الاسماء (غربة ، وصالا)

الهوامش

(1) صور الاخر ناظرا و منظورا اله ، تحرير الطاهر لبيب (المقدمة: 38

(2) المكان في الشعر المهجري . رسالة ماجيستير : 143

(3) الذات والاخر في شعر عمر ابن ابي ربيعة . رسالة ماجستير : 63

(4) المكان والمصطلحات المقارنة له دراسة مفهومانية ، مجلةابحاث كلية التربية الاساسية المجلد (11) ع2/ 249

(5) ينظر : المصدر نفسة : 250

(6) المكان في الشعر الاندلسي عصر الملوك والطوائف . رسالة ماجيستير امل بنت محسن سالم رشيد العيري : 14

(7) ينظر : المصدر نفسة : 15

(8) المصدر نفسة :33

(9) ينظر : دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر دراسة في اشكالية التلقي الجمالي : 274

(10) شحنات المكان جدلية التشكيل والتأثير ، ياسين النصير : 79

(11) ينظر : الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم ، د سمير الديوب 79.

(12) ينظر : مشكلة الفن ، زكريا ابراهيم ، 27

(13) ينظر : التفسير النفسي للادب ، د عز الدين اسماعيل ، 74.

(14) ينظر : ثنائيات الرؤيا في شعر طرفه رسالة ماجستير ، الاء محمد لازم 35.

(15) فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية ، حبيب موشي 108.

(16) ديوان الحطيئة : 16 . الولي : كل مطر جائت بعدها مطرة . والعزلاء مصب الماء فن ةالراوية ونوحها ، وجمعها عزالي . فغانيها : منازلها

(17) حجازيات الشريف الرضي : 84.

(18) الديوان : 165. المؤبل : النعم التي تتخذ للقنية : يقال : ابل مؤبلة والشوي : جمع شاء ، يقال : شاء وشوي. السفي : ماسفته الريح من التراب، وهو السافياء والسافي . الدعس : كثرة الوطيء والاثار.

(19) ينظر : قراءة في النص الشعري والنقدي ، د مي يوسف خليف : 174.

(20) الديوان : 144 وما بعدها . الخرج : موضوع ، والجزع : مانثنى من الوادي . تحنو : تعطف ، والاطلاع : اولاد البقر والظباء ، الواحد طلا ، وهو الصغير من اولاد الغنم والناس . والعين البقر . والمولعة : بها توليع من سواد أي خطط في قوائمها ، والصفعة : سوداء الى الحمرة ، والذام والذيم : العاب والعيب . انسة : ذات النس من غير ريبه، لاتاتلي: لاتخلف. خود : شابة

حسنة الخلق ، والريا : الريح الطيبة ، والرذي : الذي قد ارذى من الهزل والضني فلا حـــراك به . مسقام : كثير السقم

(21) ينظر : اساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، حسن عبد الجليل : 142.

(22) ينظر : المكان في الشعر الاندلسي عصر الملوك والطوائف ، مصدر سابق 14.

(23) الديوان : 130. الهجول جمع هجل وهو مطمئن من الارض الى جانب ارتفاع بحيث فيه الماء. تعذر : درس . المدجنات : السحاب المواطر . الاذيال

(24) ينظر : الزمان وابعادة ، د عبد اللطيف : 143

(25) رمز الماء في الادب الجاهلي ، د. ثناء انس الوجود : 135.

(26) الزمان والمكان واثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، د صلاح عبد الحافظ ، 284.

(27) الديوان : 106.

(28) الزمان والمكان في شعر ابي الطيب المكتنبي، د. حيدر لازم : 72.

(29) الديوان : 72 ومابعدها.

(30) شعرية المكان في الرواية الجديدة الخطاب الرواتي لادوار انخراط نموذجا ، خالد حسن حسين : 93.

(31) ينظر : جماليات المكان في روايات عبد الرحمن منيف ، رسالة ماجســتير ، مرشــد احمــد : 247.

(32) الثنائيات الضدية ودراسات في الشعر العربي القديم ، د. سمير الديوب: 95.

(33) ينظر: دراسات نقدية في الشعر العربي . د. بهجت عبد الغفور الحديثي:75.

(34) الديوان: 121: قن وضارج : النبي عيسى ، زال : تحرك. شن الماء بثنه حبه. الواشل : الذي يسيل بعضه ويقطر ، ساق : جبل. الغريد:موظع.لايا : بعد بطء. ذحول : تذمل في مســيرها، والذميل : التزيد ، ويقال ناقة مواكلة ، وفيها وكال : اذ كان فيها بطء يحتــاج الــى الضــرب والزجر اذا واكلتها: أي تركتها ولم اضربها ولم ازجرها.

(35) المكان في شعر السياب رسالة ماجستير . فاتن محمد جازع : 242.

(36) الزمان وابعادة : مصدر سابق:143.

(37) ينظر: دراسات في الشعر العربي القديم . د. بهجت عبد الغفور الحديثي:67.

(38) الزمان والمكان واثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، مصدر سابق:279.

المصادر والمراجع

اولاً: الكتب

- اساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، د.عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة، ط، –2001م
- التفسير النفسي للادب ، د.عز الدين اسماعيل . دار العودة بيروت ، ط 1988
- الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم . د. سمير الديوب ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، 2009م
- حجازيات الشريف الرضي قراءى نقدية في جماليات التفكير والتعبيرنادر عبد الكريم حقاني ، دار النهج للدراسات والنشر والتوزيعلا ط1–2010م–1431ه.
- دراسات في الشعر القديم ، د.بهجت عبد الغفور الحديثي ، مطبعة التعلم العالي ، بغداد.
- دراسات نقدية في الشعر العربي ،د. بهجت عبد الغفور الحديثي ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ط1–1992م.
- دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر ، دراسة في اشكالية التلقي الجمالي، قادة عفان ، منشورات اتحاد الكتاب العربي – دمشق ، 2001م
- شرح ديوان الحطيئة ، لرواية وشرح ابن السكيت دار الفكر العربي – بيروت ، ط – 2001م
- رمز الماء في الادب الجاهلي ، د. ثناء الوجور ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – 2000م.
- الزمان وابعاده وبنيته ، د. عبد اللطيف الصديقي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط . 1415–995م
- الزمان والمكان واثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، دراسه نقدية نصيه ، د.صلاح عبد الحافظ ، دار المعارف – مصدر (د. ت).
- الزمان والمكان في شعر ابي الطيب المتنبي ، د. حيدر لازم مطلك، دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان – 1431 – 2010م.

- شحنات المكان جدلية التشكيل والتاشير ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ط1– 2011م.
- صورة الاخر ناظرا ومنظورا اليه ،تحرير الطاهر لبيب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2008م.
- شعرية المكان في الرواية الجديدة الخطاب الرواتي لادرار الخراط نموذجا، خالد حسن حسين ، مؤسسة اليمامة.
- فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، حبيب مونسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، 2001م.
- قراءة النص الشعري والنقدي ، د.مي يوسف خليف ، مكتبة الانجلو المعربة– 2000م.
- مشكلة الفن ، زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر ، د.ت.

الرسائل والاطاريح

- ثنائيات الرؤيا في شعر طرفة بن العبد، رساله ماجستير ، تقدمت بها الاء محمد لازم الى مجلس كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وادابها 1420ه–2000م.
- جماليات المكان في روايات عبد اتلرحمن منيف ، رسالة ماجستير تقدم بها مرشد احمد الى كلية الاداب ، جامعة حلب، 1992م.
- الذات والاخر في شعر عمر بن ابي ربيعة ، رسالة تقدمت بها صبا عصام عبد الحسين نومان الدليمي الى مجلس كلية التربية (صفي الدين الحلي) جامعة بابل ، وهي جزء من متطلبات شهادة الماجستير في اللغة العربية ، الاداب 1431ه–2010م.
- المكان في شعر السياب ، رسالة ماجستير ، فاتن محمد جازع الخزاعلة كلية الاداب – جامعة ال البيت 2010م.
- المكان في الشعر المهجري ، رسالة ماجستير تقدم بها حكيم صبري عبد الله الى كلية التربية ، الجامعة المستنصرية 2001م.

- المكان في الشعر الاندلسي عصر الملوك والطوائف رسالة تكميلية لنيل درجة الدكتوراه في الادب العربي ، امل بنت محسن سالم رشيد العميري ، جامعة ام القرى كلية اللغة العربية ، المملكة العربية السعودية،1427ه – 2006م.

البحوث والدوريات

– المكان والمصلحات المقاربة له ، دراسة مفهومانية . د. غيداء احمد سعدون شلاش، مجلة ابحاث التربية الاساسية ، المجد11 ، العدد 20 ، 2011م.

The abstract

The talking about the other means talking about the self .It is impossiplw to separatr one from the other ، regardless of its rank .Since God creates Adam (Peace upon him) < He great Eve with him .And the human being can not live lonely.The talking contituse for the Jaahili poet as a part from his talking and hi view to himself.

The other can not perform any work unless the self stans with him . It is the secret of him . Without the self ، The other can not reach to his aim or it is a very difficult thing.

The relationship between the self and the other is the core for the creative text. The creativity is one of the succeful features of the text. And the thinks of the employ it as one of the crucial features that lead to the success of their texts.

As a result of that،The literary text can not be called a literary text without the intervention of the other in it،because of the factors that are available in the literary text such as imagination ، passron and the style ، all thes things lead to the mofify the other.

The self of the poet is the one that forms the other ، and it calls for the other if he is not available.

The self and the other in the poetry of Al-Atain.